الفصل الرابع

شعراء المتكلمين

١

كان العصر الأموى نقطة تحول عندها تراث الأمم المفتوحة إلى عقول العرب ، وانصبت فى فكرهم ثقافاتها بكل ما فيها من منطق ومعارف مختلفة ، فقد أخذت روافد هذا التراث الضخم المتشعبة فى العراق والشام ومصر تتجمع وتنحدر إلى مجرى النهر العربى ، حيث تلتقى هذه الروافد بجدول إسلامى وجدول آخر جاهلى ، فتحدث تطوراً هائلا فى حياة العرب العقلية .

وكان من آثار ذلك أن انبثقت فى هذا العقل حركات تعليمية كثيرة ، كالحركة الدينية التى عنيت بتفسير القرآن ورواية الحديث ووضع قواعد الفقه لكل فروع الحياة الاجتماعية والسياسية ، ولم تقتصر فى استمدادها على القرآن والحديث ، وإنما أخذت بعين الاعتبار ما قرر الكتاب والسنة من ضرورة احترام العقل والرأى الشخصى ، فاستندت أيضاً إلى الإجماع والقياس وقررتهما جميعاً أصولا لقواعد الفقه الإسلامى ، يشهد بذلك ما روى عن الحسن البصرى من أن شخصاً سأله عن بعض فتاويه أبرأيه أم سمعها ؟ فقال « لا والله ما كل مانفتى به سمعناه »[١] .

وبدهى أن يقود هذا الاجتهاد فى الرأى والأخذ بالقياس فى الفتوى إلى اختلاف واسع بين الفقهاء الذين تميزت بينهم اتجاهات ومدارس مختلفة باختلاف الأصول التى قدموها وأولوها عنايتهم .

فبينما اشتهرت مدرسة الحجاز بغلبة الحديث عليها اشتهرت مدرسة العراق بغلبة القياس حتى عرف فريق من فقهائها بأهل الرأى[٢] . ولكن هذا الاختلاف

---

(١) ابن سعد جـ ٧ ص ١٢٠ (٢) المعارف ص ٢٤٨

لم يكن ليحدث حرجاً وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « اختلاف أمتى رحمة » وطبيعى أن يكون هذا الاختلاف مادام الأمر هكذا محكاً للعقول ومشحذة للأفكار ودافعاً إلى البحث والدرس فى وجوه الخلاف وأسبابه حتى بلغ ببعض الفقهاء أن يقول إن الرجل لا يعرف خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف[١] .

وقد أدى ذلك إلى تحاور الفقهاء وتناظرهم واتساع مناقشاتهم حتى بلغت مجالس الخلفاء وانتقلت من إقليم إلى آخر ، وعد النظر فى الرأى فوق النسك والعبادة[٢] .

وما من ريب فى أن هذا النظر العقلى بما طوى فيه من مناهج القياس والاستدلال والبرهنة وطرائق الجدال والحوار التى دعمت بها الثقافات المختلفة العقل العربى ، كان له آثار واسعة فى نضج الفكر وتطور الحياة العقلية تطوراً هائلا يلائم روح العصر الذى حفل بالاحتكاك الثقافى والفكرى بين المسلمين من العرب وغيرهم من أصحاب القوميات الأخرى الذين تعربوا تماما وانتقلوا بثقافاتهم المختلفة إلى العربية ، وتبع ذلك عناية العرب بالترجمة منذ منتصف هذا العصر ، وقد وجد أصحاب الآراء المختلفة فى السياسة والدين فى المواد الثقافية العديدة والمناهج والأنظار العقلية المختلفة أداة تعينهم وتدعم جدالهم فى الدفاع عن آرائهم ودحض شبه المخالفين والمنكرين وتجاوز ذلك إلى الانقسام فى داخل بعض الفرق ، وتفرق أصحابها شعباً متخالفة أخذت تتشاجر شجاراً عقلياً خصباً .

ولم يكن الشعراء بعيدين عن هذا المناخ الفكرى فقد جذبتهم التيارات الثقافية المختلفة وأثرت فيهم تأثيرات واضحة وسمت أشعارهم بسماتها .

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٨٩

(٢) ابن سعد جـ ٧ ص ٥٥٥

ومن طريف ما روى الرواة فى هذا الصدد أن الفرزدق كان يلزم حلقة الحسن البصرى، بينما كان جرير يلزم حلقة ابن سيرين[١] .

ويذكر أبو الفرج أن رجلا سأل الحسن البصرى يوماً وعنده الفرزدق عن اليمين اللغو، فقال الفرزدق : أوما سمعت ما قلت فى ذلك؟ فقال الحسن: ما كل ما قلت سمعوا فما قلت ؟ فقال : قلت :

ولست بمأخوذ بلغـــو تقوله إذا لم تعمّد عاقدات العزائم

وجاء شخص آخر فسأل الحسن عن سبية الحرب المتزوجة أتحل لمن سباها ؟ فقال الفرزدق أيضاً : أوما سمعت ما قلت فى ذلك وأنشد :

وذات حليل أنكحتنا رماحنـــا حلال لمن يبنى بها لم تطلق[٢]

وقد بدأت تنبت فى تربة العراق لهذا العصر بذور علم الحيل الذى ترعرع فيما بعد برعاية الأحناف ، وكان أهم مجالاته مجال الأيمان ، وقد أشار إليه جرير فى قوله من إحدى نقائضه :

ولا خير فى مال عليه أليـــة ولا فى يمين غير ذات مخارم[٣]

وأيضاً أشار إليه ذو الرمة فى تشبيهه إغفاءه واتتباهه السريع فى سفره بتحليل الألى فى قوله :

طوى طيه فوق الكرى جفن عينه على رهبات من حنان المحاذر
قليلا كتحليل الألى ثم قلصت به شيمة روغاء تقليص طائر[٤]

فلم يكن الشعر إذاً بعيداً عن مجالس الفقه والرأى، وإنما عاش فى قلبها وتغذى على حجاجها وجدلها ومناظراتها ، ويذكر أبو الفرج أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام بعضهم من الشعراء وهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار بن برد وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبى العوجاء وجرير

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ١٦٩
(٢) الأغانى جـ ١٩ ص ١٤ .
(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٧٥٤
(٤) ديوان ذى الرمة ص ٢٩٤ .

ابن خازم الأزدى ، فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدى ، ويختصمون عنده ، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة وأما بشار فبقى متحيرًا مخلطاً ، وأما الأزدى فمال إلى قول السمنية الهندى على تظاهره بما كان عليه ، وتذكر الروايات أن بشارًا كان يدين بالجبر ، وقد عبر عن عقيدته فى تلك الأبيات الرائعة التى تقول :

طبعت على ما فىّ غير مخـــير هواى ولو خيرت كنت المهذَّبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصّر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصّر وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا[1]

ويذكر الشريف الرضى أن ذا الرمة كان من مشهورى الشعراء ومتقدميهم على مذهب أهل العدل[2] بينما كان رؤبة من القائلين بالجبر ، وتذكر الروايات أنهما اختصما عند بلال بن أبى بردة ، فقال رؤبة والله ما فحص طائر أفحوصاً ولا تقرمص سبع قرموصاً إلا بقضاء من الله وقدر فقال ذو الرمة « والله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيايل ضرائك ، فقال رؤبة أبقدرته أكلها ؟ هذا كذب على الذئب ثان ، فقال ذو الرمة : الكذب على الذئب خير من الكذب على رب الذئب ، وهذا خبر صريح فى قوله بالعدل واحتجاجه عليه وبصيرته فيه[3]

وواضح أن ذا الرمة يعارض القول بأنه سبحانه وتعالى يخلق الأفعال فى الحيوان ، كما يخلقها فى الجماد وأنها تنسب إليه مجازًا كما يزعم الجبرية ، وإنما يجعل للإنسان حرية واختيارًا يناسبان ما حمل من المسئولية التى سيثاب عليها أو يعاقب .

وقد روى عن إسحق بن سويد أنه قال أنشدنى ذو الرمة قوله :

وعينان قال الله كونـــا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٧٠
(٢) أمالى المرتضى جـ ١ ص ١٤
(٣) نفس المرجع

فقلت له : هلا قلت فعولين : « لو قلت سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر لكان خيراً لك » تريد أن يعرّفه أنه راغب عن فكرته فى الجبر[١] .

وواضح أن ذا الرمة إنما تحرز بوصفه العينين بأنهما فعولان من القول بخلاف العدل[٢] فهو شاعر قدرى، يقابله فى الصف الثانى رؤبة وجمع غفير من شعراء بنى أمية الذين مدحوهم ونالوا جوائزهم ، وقد رأوا سادتهم على مذهب الجبر محتكمين إليه فى تقرير خلافتهم فجاروهم فى ذلك ولهذا كنا نجدهم فى كل مكان من أشعارهم يلجأون إلى القدر وإلى أن الله كتب ذلك وقدره تقديراً ولا مبدل لكلماته كما يقول جرير :

نال الخلافة إذ كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر[٣]

وكما يقول الفرزدق فى عبد الملك :

فالأرض لله ولاها خليفتـــــه وصاحب الله فيها غير مغلوب[٤]

والأمثلة فى ديوانيهما وفى أشعار سواهما من شعراء بنى أمية أكثر من أن ندل عليها، وقد أشار بعض شعرائهم صراحة إلى أنه لا يصح لأحد أن يشكو من أمير المؤمنين ظلماً لأن ما يصدر عنه إنما هو بقدر من الله ، كما قال أعشى تغلب :

وإن أمير المؤمنين وجرحَـــــه لكالدهر لا عار بما فعل الدهر[٥]

وعلى هذه الصورة كان الشعر يصطبغ بكل ما يدور فى بيئات الفقهاء وأصحاب الكلام، إذ كان الجو مشبعاً بروح النقاش والبحث فى كل مسائل العصر ، فالفقهاء يتناقشون ، والقدرية والجبرية يتجادلون ، والمرجئة والشيعة يتحاورون ولم تكن هناك نحلة ولا فكرة إلا دارت من حولها المناظرات والمجادلات وكان كل هذا تحت سمع الشعراء وبصرهم .

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٢٢
(٢) أمالى المرتضى جـ ١ ص ١٥ .
(٣) ديوان جرير ص ٢٧٥
(٤) ديوان الفرزدق جـ ١ ص ٢٥
(٥) الأغانى جـ ١٠ ص ٩٩

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن أفكار الفقهاء والمتكلمين قد تجاوزت مجالسهم وصارت مبذولة للناس يتحدثون فيها ويناقشونها ، ومن طريف ما يروى أن جهم بن صفوان الترمذى كان يدعو الناس إلى مذهبه فى القول بالتعطيل والذى يقتضى أن الله تعالى عالم لا علم له ، قادر لا قدرة له وكذا فى سائر الصفات ، وكان يجلس يوماً يدعو الناس إلى مذهبه وحوله أقوام كثيرة فجاءه أعرابى ووقف حتى سمع مقالته فأرشده الله تعالى إلى بطلان هذا المذهب فأنشأ يقول :

ألا إن جهماً كافر بان كفره ... ومن قال يوماً قول جهم فقد كفر
لقد جن جهم إذ يسمى إلهه ... سميعاً بلا سمع بصيراً بلا بصر
عليما بلا علم رضيًّا بلا رضا ... لطيفاً بلا لطف خبيراً بلا خبر
أيرضيك أن لو قال ياجهم قائل ... أبوك امرؤ حر خطير بلا خطر
مليح بلا ملح بهى بلا بها ... طويل بلا طول يخالفه القصر
حليم بلا حلم وفىّ بلا وفا ... فبالعقل موصوف وبالجهل مشتهر
جواد بلا جود قوى بلا قوى ... كبير بلا كبر صغير بلا صغر
أمدحاً تراه أم هجاء وسبة ... وهزءاً كفاك الله يا أحمق البشر
فإنك شيطان بعثت لأمة ... تصيرهم عما قريب إلى سقر[1]

فهذا أعرابى يجادل جهماً فى مقالته جدالا عنيفاً على الرغم من تناوله لمقالته تناولا قريباً وسهلا إلا أنه تناول ينم عن اهتمام الناس بما كان يثار فى بيئات الفقهاء والمتكلمين ، فما بالنا بالشعراء الذين كانوا يغشون مجالسهم ويتبينون مقالاتهم ويصدرون عنها فى شعرهم .

والحق أن عقلية هؤلاء الشعراء قد ثقفت أشياء لم يكن يثقفها الشعراء من قبل فأنتج ذلك عمقاً وطرافة فى شعرهم ، ومال بعضهم إلى استخدام أسلوب الجدل والحوار والاستدلال فى أشعارهم كما فعل الكميت بن زيد فى تقريره لعقيدة الزيدية تقريراً مذهبيًّا خالصاً ، وكما فعل صفوان الأنصارى فى صياغته

---

(١) جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين ص ٨٠

لبعض أصول المعتزلة فى أشعاره كأصل التوحيد الذى احتشد لتوكيده والدفاع عنه بفكرة جديدة هى التدليل على قدرة الله وتفرده بالألوهية والخلق بالنظر فى إبداع خلقه وإحكام تدبيره وهى فكرة قرآنية الأصل ومستمدة من دعوة القرآن إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وقد نظر صفوان إلى الأرض بحكم مناظرته لزعم بشار بن برد بأن النار أكرم عنصراً من الأرض فمضى يعدد فوائدها ودفائنها ليدل بذلك على إحكام صنع الله القدير الواحد الفرد بمثل قوله :

وفى جوفها للعبد أستر منزل ... وفى ظهرها يقضى فرائضه العبد
تمج لفاظ الملح مجاً وتصطفى ... سبائك لا تصدى وإن قدم العهد
وليس بمحصٍ كنه ما فى بطونها ... حساب ولا خط وإن بلغ الجهد[1]

ونحس ونحن نقرأ لصفوان وأمثاله أننا بإزاء شعراء لهم لون خاص يميزهم عن غيرهم فهم شعراء مفكرون انغمسوا فى تيارات الثقافة والفكر واشتغلوا بهما بل هم شعراء متكلمون استطاعوا أن يصوروا عقائدهم فى شعرهم تصويراً عقلياً وأن يدللوا على صحة مذاهبهم تدليلا منطقياً حتى ليصبح شعرهم وثائق طريفة ، يودعون فيها آراءهم وأفكارهم ، وقد أغفل المؤرخون بعض هؤلاء الشعراء فأضحوا منكرين أو كالمنكورين حتى إننا لا نكاد نعرف شيئاً عن صفوان الأنصارى شاعر المعتزلة الأول ، وإن وصلت إلينا من شعره عدة قصائد مذهبية[2] يظهر فيها بوضوح أنه كان شاعراً متكلماً وأنه نقل إلى شعره مناهج التدليل العقلى المعتمدة فى النظر المعتزلى إلا أننا لا نجد له ترجمة ما ، كما لا نجد لزميله أبى الطروق الضبى من ذلك شيئاً إلا ما ذكره ابن خلكان من أنه كان شاعراً من شعراء المعتزلة ، وأنه مدح واصل بن عطاء بإطالة الخطب واجتناب الراء

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٩

(٢) انظر البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤ — ١٩

على كثرة ترددها فى الكلام[١] وعدا أبيات مفردة فى ذلك يرويها له الجاحظ والمرزبانى[٢] .

وكان حظ شاعر المرجئة ثابت قطنة خيراً من حظ صفوان وأبى الطروق فقد حفظ لنا التاريخ بعض أخباره وإن كان شعره الذى وصل إلينا فى عقيدته لا يتجاوز أبياتاً بعينها .

٢

ويختلف الرواة فى اسم ثابت قطنة[٣] ونسبه ، فيذكر أن اسمه ثابت ابن كعب ، كما يذكر أنه ثابت بن عبد الرحمن بن كعب ، ويكنى بأبى العلاء ، وتجعله بعض الروايات أخا بنى أسد بن الحارث بن العتيك الأزديين ، بينما يقال إنه ليس إلا مولى لهم ، وقد لقب بقطنة لأن سهماً أصابه فى إحدى عينيه فذهب بها فى بعض حروب الترك فكان يجعل عليها قطنة[٤]

وقد هجاه بهذا حاجب بن ذبيان المازنى فقال :

لا يعرف الناس منه غير قطنته وما سواها من الأنساب مجهول[٥]

ويجعلنا ذلك نعتقد أنه كان من موالى بنى أسد بن الحارث بن العتيك وأنه لم يكن أزديًّا صليبة . فقد كان نفسه يدرك انقطاع نسبه ويتوقّى الغمز فيه حتى ليروى أنه هو الذى قال هذا البيت السابق فى نفسه ، وقال هذا بيت سوف أهجى به أو بمعناه ، وأنشده جماعة من أصحابه وأهل الرواية وقال : اشهدوا أنى قائله فقالوا : ويحك ما أردت أن تهجو نفسك به ، ولو بالغ

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٦٠

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣١ ، جـ ٣ ص ١٨٢ ، والحيوان جـ ٦ ص ٩٢ ، ومعجم الشعراء ص ٥١٣

(٣) انظر فى ترجمته الأغانى جـ١٣ ص ٤٧ والشعر والشعراء جـ ٢ ص ٦١٢ والخزانة جـ ٤ ص ١٨٤ والاشتقاق ص ٤٨٣ ، والطبرى جـ ٨ ص ١٣١ ، والعصر الإسلامى ص ٢٣٩ ، وأمالى المرتضى جـ ٢ ص ٦٨

(٤) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٧

(٥) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٨ والشعر والشعراء جـ ٢ ص ٦١٢

عدوك مازاد على هذا ، فقال : لابد من أن يقع على خاطر غيرى ، فأكون قد سبقته إليه ، فقالوا له: « أما هذا شر قد تعجلته ولعله لا يقع لغيرك» ويذكر أنه استشهد بهؤلاء النفر لما هجاه بحاجب بن ذبيان المازنى على أنه هو قائله فشهدوا على ذلك فقال يرد على حاجب بقوله :

هيهات ذلك بيت قد سبقت له فاطلب له ثانياً يا حاجب الفيل[١]

ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياته قبل اتصاله بالمهلب الأزدى وقد كان من فرسانه المبرزين فشهد معه بعض حروبه للأزارقة[٢] ولكن نجمه أخذ يعلو فى ولاية يزيد بن المهلب على خراسان إذ كان يوليه أعمالا فى الثغور فيحسنها ويحمد فيها مكانه لكتابته وشجاعته[٣] .

ويبدو أنه كان ذا شخصية قوية تتميز بالحنكة والمهارة إذ نرى يزيد يستعمله على بعض كور خراسان[٤] كما يظهر أيضاً أنه كان مشتغلا بمسائل الدين والفقه فقد كان يزيد بن المهلب يقدمه ليصلى بالناس يوم الجمعة[٥] .

وتذكر الروايات حادثة طريفة فى هذه الآونة تكشف عن ذكائه وبلاغته فقد علا المنبر يوم جمعة ، فلما رام الكلام تعذر عليه وحصر ، فقال بعد قليل « سيجعل الله بعد عسر يسرا ، وبعد عىّ بياناً ، وأنتم إلى أمير فعّال أحوج منكم إلى أمير قوّال » ثم أضاف قوله :

وألا أكن فيكم خطيباً فإننى بسيفى إذا جد الوغى لخطيب[٦]

وقد بلغت هذه الكلمات خالد بن صفوان فقال : والله ماعلا ذلك المنبر أخطب منه فى كلماته هذه ولو أن كلاماً استخفى فأخرجنى من بلادى إلى

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٠ .
(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٢
(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٧ .
(٤) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٧
(٥) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٨
(٦) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٧

قائله استحساناً له لأخرجتنى هذه الكلمات إلى قائلها[١] .

وحقّاً كان ثابت فارساً إذا جد الوغى ، فقد شهد مع المهالبة غزوات عديدة وظل فى ميادين القتال منذ عام ٧٨ هـ وهى السنة التى ولى فيها المهلب خراسان حتى استشهد فى قتال السغد سنة ١١٠ هـ . وكان المهلب يحيط نفسه بعدد من الشعراء الذين لزموه، وأخذوا يمدحونه ويصفون حروبه مع الترك ، ولما توفى المهلب سنة ٨٢ هـ ولّى الحجاج بعده ابنه يزيد على خراسان ، وكان شجاعاً مقداماً ، كما كان بحراً فياضاً، وقد أشاد الشعراء هناك بحروبه فى خوارزم وفرغانة وفيما وراء النهر إشادة رائعة ، وكان ثابت قطنة شاعره المقدم فأصفاه وده وكان يمدحه ويصب هجاءه على القبائل الشاغبة عليه من مثل هجائه لقبائل ربيعة التى كانت حليفة الأزد ولكنها استبطأت يزيد فى بعض الأمور فشغبت عليه حتى أرضاها . وقد أغضب ذلك ثابتاً فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها على لسان يزيد :

عصافير تنزو فى الفساد وفى الوغى ... إذا راعها روع جماميح بروق
أأحلم عن ديان بكر بن وائـــل ... وتعلق من نفسى الأذى كل معلق
ألم أك قد قلدتكم طوق حـــرة ... ونكلت عنكم فيكم كل ملصق
لعمرك ما استخلفت بكراً ليشغبوا ... علىّ وما فى حلقكم من معلق
ضممتكم ضما إلىّ وأنـــتم ... شتات كفقع القاعة المتفرق
وأنتم على الأدنى أسود خفية ... وأنتم على الأعداء خزان سملق[٢]

ولم يستطع يزيد أن يقدم على غزو آخر لاختلال الأمن فى خراسان نتيجة لاشتعال روح العصبية بين قيس والأزد وازدياد خطرها بوقوف المهالبة إلى جانب الأزد وأحلافها من اليمن وربيعة مما ترتب عليه عزله وتولية أخيه المفضل مكانه ، وسرعان ما رأى الحجاج أنه لا يقل عصبية عن أخيه وصح عزمه على التخلص من المهالبة جميعاً فعزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٨٦ هـ لتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها .

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٧ .
(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٣ .

ولم يترك ثابت خراسان ، وإنما ظل فى فرسان قتيبة بن مسلم واشترك مع جنده فى فتح طخارستان وأرض السغد وخوارزم وسمرقند وماوراء النهر . ولم يكن قتيبة خفيًّا به بطبيعة الحال ، ولذلك نراه يتربص به ويتلومه على بعض الأحداث التى يأتيها مثل استنكار غدره بينزك سنة ٩١ هـ حيث قال مخاطباً قتيبة :

لا تحسبن الغدر حزماً فربما ترقّت به الأقدام يوماً فزلت[١]

ونراه ضائقاً بقتيبة مبغضاً له متحسراً على ضياع عهد يزيد المهلبى متمنياً الموت ليريحه من الحياة بعد أميره ، ويروى أبو الفرج أنه دخل على قتيبة فسأله حاجة فلم يقضها له ، فخرج من عنده ليقول لأصحابه « لكن يزيد بن المهلب لو سألته هذا أو أكثر منه لم يردنى عنه » وقال فى ذلك :

أبا خالد لم يبق بعدك سوقة ولا ملك ممن يعين على الرفد
ولا فاعل يرجو المقلّون فضله ولا قائل ينكى العدو على حقد
لو أن المنايا سامحت ذا حفيظة لأكرمنه أوعجن عنه على عمد[٢]

وقد جزى ثابت قتيبة ازوراراً بازورار ، وتجاوز التعبير عن امتعاضه منه إلى هجائه وهجاء قبيلته باهلة حين هزمت فى بعض حروب الترك ولم تثبت كما ثبتت تميم فقال ثابت فى ذلك :

توافت تميم فى الطعان وعرّدت بهيلة لما عاينت معشراً غلبا
كماة كفاة يرهب الناس حدهم إذا مامشوا فى الحرب تحسبهم نكبا
تسامون كعباً فى العلا وكلابها وهيهات أن تلقوا كلاباً ولا كعبا[٣]

وكان قد استكتم راويته النضر هذه الأبيات فأفشاها فهجاه ثابت بقوله :

يا ليت لى بأخى نضر أخا ثقة لا أرهب الشر منه غاب أم شهدا
أصبحت منك على أبواب مهلكة وزلة خائفاً منك الردى أبدا

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٢٢٨
(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٤
(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٥١

ما كنت إلا كذئب السوء عارضة أخوه يدمى فمزّى جلده فدما
أو كابن آدم خلى عن أخيه وقد أدمى حشاه ولم يبسط إليه يدا
أهم بالصرف أحياناً فيمنعنى حيا ربيعة والعقد الذى عقدا[١]

وواضح أن ذيوع خبر هذه الأبيات التى هجا فيها باهلة قد جعله كما يقول على أبواب مهلكة يخشى منها الردى ، وقد راح يشيد بتميم إغاظة لباهلة على الرغم من ذلك ، إذ كانت فى ذلك الوقت أقوى العصبيات خطراً فى خراسان بعد أفول نجم الأزد وأصبحت تمثل جانب المعارضة القوية لقتيبة بعد أن قتل منها نفراً من الأهاتم وأساء معاملة بطلهم وكيع بن أبى سود ، ويذكر ابن الأثير إحصائية طريفة عن عدد الجند فى جيش خراسان وعصبياتهم المختلفة ، فقد كان عدد المقاتلة من أهل البصرة والعالية تسعة آلاف وكان البكريون سبعة آلاف وعبد القيس أربعة آلاف ، وجند الكوفة سبعة آلاف ، والموالى بقيادة حيان النبطى الديلمى سبعة آلاف ، بينما كان الأزد عشرة آلاف وتميم مثلهم[٢] .

وقد أخذ نجم تميم يلمع ويتأكد خطرها وبخاصة بعد بلائها الحسن فى حرب الترك ، فاحتملت مع الأزد الجانب الأكبر فى مقاومتهم والانتصار عليهم سنة ٩٥ هـ مما جعل ثابتاً يلهج بالإشادة بهم والتعريض بتقاعس باهلة فى مثل قوله :

فدى نفسى فوارس من تميم على ما كان من ضنك المقام
بقصر الباهلى وقد أرانى أحامى حين قل به المحامى
بسيفى بعد كسر الرمح فيهم أزودهم بذى شطب حسام
أكر عليهم اليحموم كرّا ككر الشرب آنية المدام
فلولا الله ليس له شريك وضربى قونس الملك الهمام
إذاً فاظت نساء بنى دثار أمام الترك بادية الخدام[٣]

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥١
(٢) ابن الأثير جـ ٥ ص ٦
(٣) الطبرى جـ ٨ ص ٢٣١

وما يكاد سليمان بن عبد الملك يلى الخلافة بعد أخيه الوليد حتى يخشى قتيبة على نفسه ، إذ كان سليمان مبغضاً للحجاج ولقيس حانقاً على عماله لما كان من إجابته الوليد إلى ما اعتزمه من عزل سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه عبد العزيز مكانه ؛ فبادر قتيبة بإزاء هذا فثار على سليمان وسرعان ما انفضت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعتهم تميم ، وتزعم وكيع بن أبى سود الموتور حربه وانضمت إليه الأزد الحانقة منذ عزل المهالبة كما انضمت إليه معها قبائل ربيعة والموالى بقيادة حيان النبطى وأخيراً تخلت عنه قيس نفسها وخذلته إلا نفر من عشيرته باهلة فلقى حتفه سنة ٩٦ هـ وهوى نجم قيس وارتفع نجم تميم بولاية وكيع بن أبى سود ولاية خراسان ، غير أن وكيعاً أخذ الناس بالعنف فما لبث حتى عزله سليمان وولى مكانه يزيد بن المهلب جامعاً له بين خراسان والعراق ، وقد مضى يزيد هو الآخر يتبع سياسة عصبية جامحة فرفع من شأن الأزد وملأ بهم الوظائف وجعل لهم القسط الأوفر من الغنائم .

وإذ ذاك يعود ثابت قطنة إلى ما كان عليه من صحبة يزيد ومدحه والإشادة بانتصاراته على ملوك الترك من مثل قوله بعد قتله لهم :

أقر العين مقتل كازرنـــك وكشبيذ وما لاقى يبـــاد[1]

ورغبة من يزيد فى ستر سياسته العصبية عن الخليفة راح يبالغ فى كتبه إليه عن ضخامة الفىء الذى أفاءه الله عليه فى غزواته من مثل زعمه أنه كان عدة قناطر من الذهب فى بعضها ، وأن خمسه بعد أن أخذ كل محارب سهمه قد بلغ أربعة آلاف ألف ، أوستة آلاف ألف ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد سليمان طلب منه أداء هذه المبالغ فعجز عن أدائها ، ولم ير عمر غير حبسه حتى يؤدى ما عليه للدولة كما عزل كل عماله الأزديين وإذ ذاك هوى نجم الأزد مرة أخرى . وولى خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى ونجح يزيد المهلبى فى الفرار من سجن عمر بن عبد العزيز فى أخريات خلافته وما إن يلى الخلافة يزيد بن عبد الملك حتى يسير إلى البصرة سنة ١٠١ هـ ، ويأسر واليها ثم يواصل

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٨١

سيره إلى الكوفة حيث ينضم إليه الأزد وربيعة وينحاز إليه أهله وخاصته وآزرته المرجئة بزعامة أبى رؤبة وكثير من الفقهاء والقراء وعظم أمره واشتدت شوكته وأظهر الدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه وسيرة عمر بن عبد العزيز زاعماً أن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً عند الله من جهاد الترك والديلم ، ولكن الصبغة العصبية غلبت على حركته فقد تلقب بالقحطانى واعتمد على قبائل اليمن .

وكان ثابت قطنة شاعر ثورة المهالبة قد بعث إليه من خراسان بقصيدة يحرضه فيها ويشحذ همته ويذكره بمجد أبيه وعشيرته ، ويقول فيها :

إن امرأ حدبت ربيعة حولـــه ... والحى من يمن وهاب كثردا
لضعيف ما ضمنت جوانح صدره ... إن لم يلف إلى الجنود جنـــودا
أيزيد كن فى الحرب إذ هيجتها ... كأبيك لا رعشاً ولا رعديدا
شاورت أكرم من تناول ماجداً ... فرأيت همك فى الهموم بعيـــدا
ما كان فى أبويك قادح هجنة ... فيكون زندك فى الزناد صلودا
إنا لضرّابون فى حمس الوغى ... رأس المتوج إن أراد صدودا
وترى إذا كفر العجاج ثرى لنا ... فى كل معركة فوارس صيدا
ياليت أسرتك الذين تغيبـــوا ... كانوا ليومك بالعراق شهودا
وترى مواطنهم إذا اختلف القنا ... والمشرفية يلتظين وقـــــودا[1]

وواضح من الأبيات أن يزيد قد بعث يستشير ثابتاً فى أمره لما كان له من صلة به وبأبيه ، كما هو واضح أيضاً بأنه يشير عليه بأن يمضى بالأمر إلى تمامه وبألا ينكل عما بدأه .

وقد علق يزيد على أبيات ثابت بما يفيد أنه غافل فى خراسان عن الظروف القاسية التى تحيط بحركة يزيد فى العراق ، وهذا يخالف ما ذكره أبو الفرج من أن ثابتاً كان مع يزيد بن المهلب يوم العقر[2] ولكن ثابتاً فى الحقيقة لم يشهد يوم العقر إذ أن يزيد بعد قراءة كتابه الذى احتوى القصيدة السابقة قد أمر بأن

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٢

(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٣

يكتب إليه بصعوبة الظروف التى تواجهها حركته وبأنه على الرغم من ذلك سيطيعه وسيرى ما يكون[١] .

ويظهر ذلك أيضاً فى قول ثابت وهو يرثى يزيد موجهاً حديثه إلى هند بنت المهلب .

مصاب بنى أبيك وغبت عنهم فلم أشهدهمُ ومضوا كراما[٢]

ومثل قوله أيضاً :

أصيب ولم أشهد ولو كنت شاهداً تسليت إن لم يجمع الحى مأتما[٣]

وقد أرسل يزيد بن عبد الملك إلى ابن المهلب بأخيه مسلمة بن عبد الملك وبابن أخيه العباس فى جيش كثيف والتقى هذا الجيش بجيش المهالبة سنة ١٠٢ هـ فى العقر فاقتتلا قتالا شديداً ولى على أثره أصحاب ابن المهلب عنه وتركوه حيث قتل فى المعركة . وقد رثاه ثابت قطنة رثاء مؤثراً ندد فيه بخذلان أهل العراق له وفرارهم عن نصرته من مثل قوله :

كل القبائل تابعوك على الذى تدعو إليه وبايعوك وساروا
حتى إذا حمس الوغى وجعلتهم نصب الأسنة أسلموك وطاروا
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عاراً عليك وبعض قتل عار[٤]

وقد أنشد مسلمة بن عبد الملك بعد قتل يزيد بن المهلب قول ثابت :

يا ليت أسرتك الذين تغيبـــوا كانوا ليومك بالعراق شهودا

فقال مسلمة : وأنا والله لوددت أنهم كانوا شهوداً يومئذ لسقيتهم بكأسه[٥]

وقد كادت الأبيات التى حرض فيها يزيد على الثورة تودى به عند والى خراسان الأموى سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص ، فقد جلس يعرض الناس ذات يوم وعنده حميد الرواسى وعبادة المحاربى . فلما دعى بثابت

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٢
(٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٤
(٣) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٤
(٤) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٣
(٥) المرجع نفسه

تقدم وكان تام السلاح جواد الفرس فارسا من الفرسان فسأل عنه فقيل : هذا ثابت قطنة وهو أحد فرسان الثغور فأمضاه وأجاز اسمه ، فلما انصرف قال له حميد وعبادة هذا — أصلحك الله — الذى يقول :

إنا لضرّابون فى حمس الوغى رأس الخليفة إن أراد صدودا

قال سعيد : علىّ به ، فردوه وهو يريد قتله ، فلما أتاه قال له : أنت القائل كذا ؟ فقال نعم أنا القائل :

إنا لضرّابون فى حمس الوغى رأس المتوج إن أراد صدودا
عن طاعة الرحمن أو خلفائه إن رام إفساداً وكر عنـــودا

فقال له سعيد : أولى لك ، لولا أن خرجت منها لضربت عنقك . وبلغ ثابتاً ما قال حميد وعبادة فغضب ، وأتاه عبادة معتذراً فقبل عذره ولم يأته حميد فقال يهجوه :

وما كان الجنيد ولا أخـــوه حميد من رءوس فى المعالى
فإن يك دعبل أمسى رهيناً وزيـــد والمقيم إلى زوال
فعندكم ابن بشر فاسألـــوه بمرو الروذ يصدق فى المقال
ويخبر أنه عبـــد زنيم لئيم الجد من عم وخـــال[1]

وقد أمعن والى خراسان الأموى فى الإساءة إلى الأزد ، وأدى اشتغاله بإشعال أوار العصبية إلى إغفال أمر الموالى الذين ثاروا فى عهده على العرب فى سمرقند ولحقوا بالترك وساعدوهم على العرب احتجاجاً على دفع الجزية على الرغم من إسلامهم .

وحاول أشرس بن عبد الله السلمى والى خراسان لهشام بن عبد الملك أن يهدئ من ثائرتهم فوجه إليهم بأبى الصيداء صالح بن طريف يحمل موافقته على أن يضع الجزية عمن أسلم منهم ، فشخص أبو الصيداء إلى سمرقند حيث سارع الناس إليه فكتب الدهاقين إلى أشرس بأن الخراج

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥١

قد انكسر فكتب أشرس إلى ابن أبى العمرطة الكندى عامل سمرقند بأن الخراج قوة المسلمين، وقد بلغنى أن أهل السغد دخلوا فى الإسلام لتسقط عنهم الجزية وأمره أن ينظر من اختتن. وحسن إسلامه فيرفع عنه الخراج ثم عزل ابن أبى العمرطة عن الخراج وصيره إلى هانئ وضم إليه الأشيحذ فقام أبو الصيداء يمنعهم من أخذ الخراج ممن أسلم. وكتب هانئ إلى أشرس بأن الناس ابتنوا المساجد وأسلموا، فجاء دهاقو بخارى إلى أشرس فقالوا ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا فكتب أشرس إلى هانئ وإلى العمال بأن يأخذوا الخراج ممن كانوا يأخذونه منه فأعادوا الجزية على من أسلم فامتنع أهل السغد عن دفعها واعتزل منهم سبعة آلاف تعصب لهم أبو الصيداء وجماعة من العرب من تميم والأزد وبكر وفيهم ثابت قطنة وأبو فاطمة الأزدى وبشر بن جرموز وغيرهم من وجوه المرجئة، ونهض أشرس للأمر فعزل ابن أبى العمرطة عن حرب سمرقند واستعمل المجشر بن مزاحم السلمى وضم إليه عميرة بن سعد الشيبانى فكتب المجشر إلى أبى الصيداء بأن يقدم عليه وأصحابه، فقدم أبو الصيداء وثابت قطنة فحبسهما، فاجتمع الثوار وولوا أمرهم أبا فاطمة ليحارب هانئاً فطلب إليهم أن يكفوا حتى يكتب إلى أشرس وقد أشار أشرس بأن يضعوا عنهم الخراج فتشتت أمرهم واتبعوا واستخف بعظمائهم وخرقت ثياب الدهاقين وبقى ثابت محبوسا، فكفرت السغد وبخارى، واستجاشوا الترك.

ولم يزل ثابت قطنة فى حبس المجشر حتى قدم نصر بن سيار والياً على المجشر فحمل ثابتاً إلى أشرس، وكان نصر قد أحسن إليه وألطفه فمدحه ثابت وهو فى سجن أشرس بقصيدة رائعة يقول فيها :

إنى وإن كنت من جذم الذى نضرت ... منه الفروع وزندى الثاقب الوارى
لذاكر منك أمراً قد سبقت به ... من كان قبلك يانصر بن سيار
ناضلت عنى نضال الحر إذ قصرت ... دونى العشيرة واستبطأت أنصارى
وصار كل صديق كنت آمله ... إلباً علىّ ورثّ الحبل من جارى
وما تلبثت بالأمر الذى وقعوا ... به علىّ ولا دنست أطمارى

ولا عصيت إماماً كان طاعته حقاً علىّ ولا قارفت من عـار[١]

ولما أراد أشرس غزو السغد وبخارى وحصر قائده قطن بن قتيبة هناك أخرج ثابت قطنة بكفالة عبدالله بن بسطام ووجهه معه فاتبعوا الترك وقاتلوهم بآمل واستنقذوا ما بين أيديهم، ولكن الترك كروا عليهم وهزموا سرية منهم عليها أحد بنى حيان وقطعوا الماء عن المسلمين فجهدوا من العطش ومات منهم سبعمائة وعجز الناس عن القتال فحض الحارث بن سريج الناس بأن القتل بالسيف أكرم فى الدنيا وأعظم أجراً عندالله من الموت عطشاً وتقدم وتبعه المسلمون حتى أزالوا الترك عن الماء وشربوا ومر ثابت بعبد الملك بن دثار الباهلى فقال له : يا عبد الملك هل لك فى آثار الجهاد؟ فقال أنظرنى ريثما أغتسل وأتحنط ، فوقف له حتى خرج ومضيا فقال ثابت لأصحابه : أنا أعلم بقتال هؤلاء منكم ، وحضهم فحملوا وراءه على العدو واشتد القتل وقتل ثابت فى عدة من المسلمين ، وضم قطن بن قتيبة خيلا من بنى تميم وقيس وتبايع مع جنده على الموت فأركبهم الله ظهر الترك[٢] .

وهكذا انتهت حياة هذا الفارس الشجاع فى أغلب الظن قبل نهاية العقد الأول من القرن الثانى الهجرى .

وقد كان ثابت لسان المرجئة المعبر عن عقيدتها ، ولا تذكر الروايات ما يفيدنا شيئاً عن الزمن الذى مال فيه إلى اعتناق مقالتهم ولكن أبا الفرج يذكر عن أبى عبيدة أن ثابت قطنة قد جالس قوماً من الشراة وقوماً من المرجئة كانوا يجتمعون فيتجادلون بخراسان فمال إلى قول المرجئة وأحبه، فلما اجتمعوا بعد ذلك أنشدهم قصيدته فى الإرجاء[٣] .

وهى قصيدة على جانب كبير من الأهمية والخطر لأنها الأثر الوحيد الباقى الذى يصور عقيدة المرجئة وأفكارها ، وقد أودع فيها ثابت مقالة المرجئة الجبرية على هذا النحو :

يا هند إنى أظن العيش قد نفدا ولا أرى الأمر إلا مدبراً نكدا

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٦١ (٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٧ .
(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٠

إنى رهينة يوم لست سابقه ... إلا يكن يومنا هذا فقد أفـدا
بايعت ربىّ بيعاً إن وفيت به ... جاورت قتلى كراما جاوروا أحدا
يا هند فاستمعى لى إن سيرتنا ... أن نعبد الله لا نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أوعندا
المسلمون على الإسلام كلهم ... والكافرون استووا فى دينهم قددا
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحدا ... م الناس شركا إذا ماوحدوا الصمدا
لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا ... سفك الدماء طريقاً واحداً أجددا
من يتق الله فى الدنيا فإن له ... أجر التقى إذا وفّى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له ... ردّ وما يقض من شىء يكن رشدا
كل الخوارج مخطٍ فى مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهـدا
أما علىٌّ وعثمان فإنهمـــا ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا ... شق العصا وبعين الله ما شهدا
يُجزى علىٌّ وعثمان بسعيهما ... ولست أدرى بحق آيه وردا
الله يعلم ماذا يحضران بـــه ... وكل عبد سيلقى الله منفردا[1]

ويبدو أن هذه القصيدة ليست كل ما نظم ثابت فى عقيدته إذ أن شعراً كثيراً له قد فقد، فأبو الفرج يذكر أنه نسخ ما أورد من أشعاره من كتاب بخط المرهبى الكوفى فى شعر ثابت قطنة[2] ويذكر ابن النديم أن أحمد بن إبراهيم ابن إسماعيل بن داود بن حمدون كان له كتاب بعنوان شعر ثابت قطنة[3] .

وهذا يجعلنا نعتقد أنه كان شاعراً مكثراً وأن بعض هذا الشعر كان يحمل مقالة الإرجاء، وقد عالج ثابت موضوعات الشعر التقليدية جميعاً ، وليس شك فى أن أبرز هذه الموضوعات فى شعره هو الهجاء ويرجع ذلك إلى أنه اجتمع فى نفسه تعصب شديد للأزد ولليمن بعامة، وكأنه يريد جاهداً أن يلتصق بهم

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٠
(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤
(٣) الفهرست ص ٣٦٥

التصاقاً وأن يستر بهم نسبه المغموز إلى جانب حساسية شديدة واستعلاء مبالغ فيه يمكن أن نفسره على أنه مركب نقص مقلوب قنعته سخرية لاذعة إلى حد المرارة .

وقد جرّه هذا الإحساس إلى الاصطدام ببعض الشعراء الذين نافسوه ودّ يزيد ابن المهلب وشاركوه فى لزومه والانقطاع له . وكان أهم هؤلاء حاجب بن ذبيان المازنى التميمى، وليس شك فى أن اشتعال الهجاء بينهما يرجع إلى حسد ثابت لحاجب ، فقد قدم حاجب على يزيد بن المهلب مادحاً فلما مثل بين يديه أنشده فى حضور ثابت قصيدة افتتحها بقوله :

إليك امتطيت العيس تسعين ليلة أرجى ندىكفيك ياابن المهلب

ثم مضى يستهديه فرساً ودرعاً سابغة وسيفاً ورمحاً وقال بعد ذلك :

وقل لى إذا ماشئت فى حومة الوغى تقدم أواركب حومة الموت أركب

فإنى امرؤ من عصبة مازنيـــة نمانى أب ضخم كريم المركب

فأمر له يزيد بدرع وسيف وفرس ورمح وقال له : قد عرفت ما شرطت لنا على نفسك ، فقال حاجب : أصلح الله الأمير حجتى بينه وهى قول الله —عز وجل— : «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » . فقال ثابت قطنة : « ما أعجب ما وفدت به من بلدك فى تسعين ليلة ، مدحت الأمير ببيتين وسألته حوائجك فى عشرة أبيات ، وختمت شعرك ببيت تفخر عليه فيه ، حتى إذا أعطاك ما أردت حدت عما شرطت له على نفسك فأكذبتها كأنك كنت تخدعه» فقال له يزيد: «مه يا ثابت فإنا لا نخدع وإنما نتخادع» ، وسوغه ما أعطاه وزاد فأمر له بألفى درهم[1] .

وقد دخل حاجب على يزيد مرة أخرى فمدحه بأبيات جيدة طرب لها يزيد وسأله حاجته فقال حاجب : أن تحملنى وتخدمنى وتجزل جائزتى فأمر له بخمسة تخوت ثياباً وغلامين وجاريتين وفرس وبغل وبرذون وخمسة آلاف درهم فحسده

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٨

ثابت على هذا العطاء[١]. وأساء إليه بمثل قوله: « والله لو على قدر شعرك أعطاك لما خرجت بملء كفك نوى ولكنه أعطاك على قدره» وقام مغضباً فقال لحاجب يزيد: «إنما فعل الأمير هذا ليضع منا بإجزالة العطية لمثل هذا ، وإلا فلو اجتهدنا فى مديحه مازادنا على هذا »، وأخذ ينتقصه ويسىء إليه فلقبه بالفيل حتى أصبح ذلك علماً عليه سمّاه به الناس . وإذ ذاك هجاه حاجب ونسبه إلى القطنة التى عرف بها ، وغمزه فى نسبه ، وواتته الفرصة أن يسخر منه لما صعد المنبر ولم يطق الكلام فحصر ، فقال حاجب فى ذلك يهجوه :

أبا العلاء لقد لقيت معضلة ... يوم العروبة من كرب وتحنيق
أما القران فلم يخلق لحكمة ... ولم يسدد من الدنيا لتوفيق
لمارمتك عيون الناس هيبتهم ... فكدت تشرق لما قمت بالريق
تلوى اللسان وقد رمت الكلام به ... كما هوى زلق من شاهق النيق[٢]

فرد عليه ثابت ردًّا فاحشاً عرّض فيه بنسبه وأقذع ، فقال :

أحاجب لولا أن أصلك زيف ... وأنك مطبوع على اللؤم والكفر
وأنّى لو أكثرت فيك مقصر ... رميتك رمياً لا يبيد يد الدهر
فقل لى ولا تكذب فإنى عالم ... بمثلك هل فى مازن لك من ظهر
فإنك منهم غير شك ولم يكن ... أبوك من الغر الجحاجحة الزهر
أبوك ديابى وأمـــك حرة ... ولكنها لا شك وافية البظـــر
فلست بهاج لابن ذبيان إننى ... سأكرم نفسى من سباب ذوى الهجر[٣]

وواضح أن ثابتاً لم يكرم نفسه عن السباب فقد أقذع إقذاعاً فاحشاً استحق بسببه ألا يرضى حاجب بهجائه وحده ولا بهجاء الأزد كلهم فهجا اليمن طرا فى قوله :

دعونى وقحطاناً وقولوا لثابت ... تنح ولا تقرب مصاولة البذل
فللزنج خير حين تنسب والداً ... من ابناء قحطان العفاشلة العزل

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٩
(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٨
(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٩

أناس إذا الهيجاء شبت رأيتهم أذل على وطء الهوان من النعل
نساؤهم فوضى لمن كان عاهراً وجيرانهم نهب الفوارس والرجل[١]

وقد لجأ حاجب إلى إثارته بهجاء قحطان جميعاً لأنه يعرف شدة عصبيته لهم ، وكان أقل حادث يثيره على خصومهم ، ونراه مع المهلب فى حروب الأزارقة وقد تعرض أحد بنى الكواء اليشكريين للمهلب وللأزد ، فإذا هو ينبرى هاجياً له ولعشيرته بقوله :

كل القبائل من بكر تعدهم واليشكريون منهم ألأم العرب
أثرى لجيم وأثرى الحصن إذ فقدت بيشكر أمه المعرورة النسب
نحاكم عن حياض المجد والدكم فما لكم من بنى البرشاء من نسب
أنتم تحلون من بكر إذا نسبوا مثل القراد حوالى عكوة الذنب
نبئت أن بنى الكواء قد نبحوا فعل الكلاب يشلى الليث فى الأشب
يكوى الأبيجر عبد الله شيخكم ونحن نبرى الذى يكوى من الكلب[٢]

وهو هجاء لاذع تعينه عليه سخرية لاذعة تتجلى فى حديثه عن قرابة اليشكريين لبكر فى البيت الرابع كما تبدو فى تنبهه إلى هجاء نفسه بذلك البيت الذى هجاه به حاجب ونسبه فيه إلى القطنة .

ومن طريف شعره الساخر فى الهجاء أبيات توجه بها إلى جويبر بن سعيد المحدِّث ، وكان ثابت قد خطب امرأة كان يميل إليها وجعله سفيرا بينه وبينها فاندس جويبر فخطبها لنفسه وتزوجها فلما ظهرت جلية الأمر لثابت قال فى ذلك :

أفشى على مقالة ما قلتهـــا وسعى بأمر كان غير سديد
إنى دعوت الله حين ظلمتنى ربى ولا يس لمن دعا ببعيـــد
أن لاتزال متيما بخريـــــدة تسبى الرجال بمقلتين وجيد
حتى إذا وجب الصداق تاعبت لك جلد أغضف بارز بصعيد
تدعو عليك الجازيات بنكبة وترى الطلاق وأنت غير حميد[٣]

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٩ (٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٢
(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٣

ويروى أبو الفرج أيضاً أنه اجتاز فى بعض أسفاره مدينة كان أميرها محمد بن مالك بن بدر الهمدانى ، وكان يغمز فى نسبه ، وقد خطب إلى قوم من كندة فردوه ، وقد انتظر ثابت منه أن يخف إليه فيكرمه . ويأمر له بقرى ويتفقده فلم يفعل ، فلما رحل عنه قال يهجوه :

لو أن بكيلاهم قومـــــه ... وكان أبوه أبـــا العاقـــب
لأكرمنا إذ مررنـــا بـــــه ... كرامة ذى الحسب الثاقـــب
ولكن حِيوان هم قومـــــه ... فبئس هم القوم للصاحـــب
وأنت سنيد بهم ملصـــــق ... كما ألصقت رقعة الشاعب
وحسبك حسبك عند الشبا ... ب أفعال كندة من عائب
خطبت فجاوزت لما خطبت ... جزاء يسار من الكاعب
كذبت فزيفت عند النكا ... ح لمتك بالنسب الكاذب
فلا تخطبن بعدها حـــــرة ... فتثنى بوسم على الشارب[1]

وهكذا يمكن القول بأن ثابتاً كان شاعراً هجاء ومبرزاً فى الهجاء فقد التأمت فى نفسه المستعلية الشديدة العصبية دوافع الهجاء الشخصية والقبلية ، ومسح على هجائه روح ساخر لاذع جعله يلجأ إلى الإفحاش ويستند إلى عناصر الهجاء الجاهلية ، وجدير بالملاحظة أنه يلح دائماً فى هجائه على غمز من يهجوه فى نسبه والتشكيك فى صحته ، وليس شك فى أن ذلك ليس إلا إسقاطاً لما يستشعره فى نفسه من إحساس دفين بالمرارة ورغبة ملحة منطلقة من اللا وعى تجهد فى ستر ما تهجس به نفسه من الخجل الناتج عن استشعاره ضعة أصله وجهله به ، وكما صدر ثابت فى هجائه عن دوافع شخصية وقبلية ، فكذلك صدر فى مديحه ورثائه عن نفس هذه الدوافع ، وله أشعار كثيرة فى مدح المهالبة ورثائهم وهو فى مديحه ورثائه لهم يستشعر عصبية القبلية استشعاراً قوياً يحاول أن يوهم به أنه أزدى صليبة ، وقد استغرقه هذا الشعور حتى كاد يفنى فيه ومنح شعره حرارة وصدقاً لم يتوافرا فى مديح غيرهم أو رثائه .

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥١

وقد مدح ثابت نصر بن سيار لما أحسن إليه وهو فى سجن أشرس مديحاً صدر فيه عن شعور بالامتنان لموقفه منه فنعته بالشجاعة والاستبسال فى الحفاظ على الثغور وهو مديح فاتر خال من العاطفة بادى التكلف من مثل قوله بعد مقدمة غزلية طويلة اختتمها بشكوى حاله :

إن كان ظنى بنصر صادقاً أبداً ... فيما أدبر من نقضى وإمرارى
لا يصرف الجند حتى يستوفىءبهم ... نهباً عظيما و يحوى ملك جبار
وتعثر الخيل فى الأقياد آونة ... تحوى النهاب إلى طلاب أوتار
حتى يروها دوين السرح بارقة ... فيها لواء كظل الأجدل الضارى
لا يمنع الثغر إلا ذو محافظة ... من الخضارم سباق بأوتار[1]

وبون شاسع بين هذا القول وبين قوله فى يزيد بن المهلب عشية يوم العقر :

ألا ياهند طال علىّ ليلى ... وعاد قصيره ليلا تماما
كأنى حين حلقت الثريا ... سقيت لعاب أسود أو تماما
أمر علىّ حلو العيش يوم ... من الأيام شيبنى غلاما
مصاب بنى أبيك وغبت عنهم ... فلم أشهدهم ومضوا كراما
فلا والله لا أنسى يزيدا ... ولا القتلى التى قتلت حراما
فعلّى أن أبؤ بأخيك يوماً ... يزيد أو أبؤ به هشاما
وعلىّ أن أقود الخيل شعثا ... شواذب ضمرا تقص الأكاما
فأصبحهن حمير من قريب ... وعكا أوارع بهما جذاما
ونسقى مذحجاً والحى كلباً ... من الذيفان أنفاساً قواما
عشائرنا التى تبغى علينا ... تجربنا زكا عاما فعاما
ولولاهم وما جلبوا علينا ... لأصبح وسطنا ملكاً هماما[2]

فى الأبيات عاطفة جياشة بالحزن والحسرة والندم والسخط حتى على

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٦٢ (٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٤ .

بنى العشيرة الأقربين الذين تسببوا فى خذلان يزيد ، ولولا ما جلبوه من التخلى عنه لصار ملكاً عظيما .

فيزيد والمهالبة جميعاً فى شعره فضلا عما يمثلونه بالنسبة له نفسياً كسند ضرورى لشفائه من مركب النقص الذى يعانيه ليسوا إلا رمزاً فى نفس الوقت لسيادة قحطان وما هى أهل له من الملك والسلطان ، وقد ظل يبكى يزيد بكاء مراً صدر فيه عن عاطفة شخصية قوية وإحساس عصبى جارف من مثل قوله :

أبى طول هذا الليل أن يتصرما ... وهاج لك السهم الفؤاد المتيما
أرقت ولم تأرق معى أم خالد ... وقد أرقت عيناى حولا مجرما
على هالك هد العشيرة فقده ... دعته المنايا فاستجاب وسلما
على ملك يا صاح بالعقر جبنت ... كتائبه واستورد الموت معلما
أصيب ولم أشهد ولو كنت شاهداً ... تسليت إن لم يجمع الحى مأتما
وفى غُير الأيام ياهند فاعلمى ... لطالب وتر نظرة أن تلوّما
فعلّى إن مالت بى الريح ميلة ... على ابن أبى ذبان أن يتندما
أمسلم إن تقدر عاياك رماحنا ... نذقك بها قىء الأساود مسلما
وأن تلق للعباس فى الدهر عشرة ... تكافه باليوم الذى كان قدما
قصاصا ولا نعدو الذى كان قد أتى ... إلينا وإن كان ابن مروان أظلما
ستعلم إن زلت بك النعل زلة ... وأظهر أقوام حياء مجمجما
من الظالم الجانى على أهل بيته ... إذا أحصرت أسباب أمرو أبهما
وإنا لعطافون بالحلم بعدما ... نرى الجهل من فرط اللئيم تكرما
وإنا لحلالون بالثغر لا نرى ... به ساكناً إلا الحميس العرمرما
نرى أن للجيران حاجا وحرمة ... إذا الناس لم يرعوا الذى الجار محرما
وإنا لنقرى الضيف من قمع الذرى ... إذا كان رفد الرافدين تجشما
أبونا أبو الأنصار عمرو بن عامر ... وهم ولدوا عوفا وكعباً وأسلما
وقد كان فى غسان مجد يعده ... وعادية كانت من المجد معظما[1]

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٤ .

فيزيد ملك هدّ العشيرة فقده ولن ينسى قومه أن يثأروا له من قاتليه وخاذليه قصاصاً عادلا بما قدموا من ظلم ، وبما جنوا على أنفسهم ، ثم يمضى فيفخر بحلم قومه على أعدائهم حتى لا يظنوه جبناً أو خوراً كما يفخر بشجاعتهم وحمايتهم للجار وكرمهم ومجدهم القديم .

وقد سلك الشاعر معانيه فى التفجع والإصرار على الثأر والفخر بقومه فى خيط عاطفى واحد أمره من عاطفته الشخصية وإحساسه المريض بالتعصب فجاء تعبيره حارًّا وصادقاً، وجاءت القصيدة كلها من واد واحد على الرغم من تعدد الموضوعات التى عالجها فقد انتقل من شكوى الليل وطوله وأرقه فيه إلى البكاء على الفقيد والتحسر على فقده ، وجره ذلك إلى استشعار السخط على قاتليه وتوعدهم بالثأر ، واقتضاه هذا الوعيد أن يفخر بنبرة عالية بقوة قومه وشجاعتهم وحلمهم وكرمهم ، ولكن هذه النبرة العالية فى الفخر قد تخفت خفوتاً وقوراً ورزيناً ، وكأن الشاعر يحاول صرف انفعاله الحزين فى صورة متعقلة تمتزج فيها الحكمة بالفخر الهادئ كما فعل فى رثاء المفضل المهلبى إذ يقول :

ياهند كيف بنصب بات يبكينى	وعائر فى سواد الليل يؤذينى
كأن ليلى والأصداء هاجـــدة	ليل السليم وأعيا من يداوينى
لما جنى الدهر من قومى وعذّرنى	شيبى وقاسيت أمر الغلظ واللين
إذا ذكرت أبا غسان أرقنى	هم إذا عرّس السارون يشجينى
كان المفضل عزًّا فى ذوى يمن	وعصمة وثمـــالا للمساكين
غيثاً لذى أزمة غبراء شاتية	من السنين ومأوى كل مسكين
ما زلت بعدك فى هم تجيش به	نفسى وفى نصب قدكاد يسلينى
إذا تذكرت قتلى لو شهدتهم	فى حومة الحرب لم يصلوا بهادونى
لاخير فى العيش إن لم أجن بعدهم	حرباً تبىء بهم قتلى فتشفينى
لاخير فى طمع يدنى إلى طبع	وعفة من قوام العيش تكفينى
وأنظر الأمر يعنينى الجواب به	ولست أنظر فيما ليس يعنينى
لا أركب الأمر تزرى بى عواقبه	ولا يعاب به عرضى ولا دينى
لا يغلب الجهل حلمى بعد مقدرة	ولا العضيهة فى ذى الضغن تكبينى

كم من عدو رمانى لو قصدت له لم يأخذ النصف منى حين يرمينى[١]

وهى أبيات تثقلها الحكمة والتعقل حتى ليذهب السيد المرتضى إلى أنها تداخلت فى قصيدة عروة بن أذينة التى يقول فيها :

لقد علمت وما الإشراف من خلقى أن الذى هو رزقى سوف يأتينى[٢]

وهكذا شعره فى مديح المهالبة ورثائهم يجيش دائماً بعاطفة قوية ويستشعر فيه العصبية استشعاراً قوياً ويجنح إلى الفخر بها فخراً عالى النبرة ، مؤكدا بصورة غير مباشرة انتماءه إليها وحاجته الملحة إلى هذا الانتماء ، ويذهب جانب من أشعار ثابت فى وصف الحرب وتصوير القتال وهو وصف فارس مارس الحرب وعاناها سنوات عديدة انتهت باستشهاده فى قتال الترك ، وهو يفخر خلال ذلك بالأزد وفرسانها وخيلها ورماحها ، وردعها للعدو من مثل قوله :

رأوا من دونه الزرق العوالى وحيًّا ما يباح لهم حريم
وخيلا كالقداح مسومات لدى أرض مغانيها الجميم
عليها كل أصيد دو سرى عزيز لا يفر ولا يريم
بهم تستعتب السفهاء حتى ترى السفهاء تردعها الحلوم[٣]

ويصور ثابت ما يتخلل المعارك من أهوال وجزع ينعكسان على نسوة الفريقين المتقاتلين فى مثل قوله :

مقارع الترك ما تنفك نائحة منا ومنهم على ذى نجدة شار[٤]

وله فى تصوير بسالته وقراعه الأعداء صور جميلة من مثل قوله مشبهاً كرّه عليهم يسقيهم الموت بكر الندامى للمدام :

بسيفى بعد كسر الرمح فيهم أذودهم بذى شطب حسام
أكر عليهم اليحموم كرًّا ككر الشرب آنية المدام[٥]

وقد عبر فى شعره هذا عن أحاسيس الفارس الذى تشط به المغازى فيحن

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٢ وأمالى المرتضى جـ ٢ ص ٦٨
(٢) أمالى المرتضى جـ٢ ص ٦٩ . (٣) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٧
(٤) الطبرى جـ ٨ ص ١٤٩ (٥) الطبرى جـ ٨ ص ٢٣١ .

إلى أرضه وأهله تعبيرا حافلا بالشجن والشوق من مثل قومه وهو فى سجن أشرس بعد أن شارك فى مؤازرة الموالى المتمردين فى سمرقند ، وخدعه المحشر واستقدمه مع أبى الصيداء فحبسهما ، وشكا ثابت حاله وما يعانيه من آلام نتيجة انفضاض الأصدقاء عن نصرته فى قوله :

ما هاج شوقك من نؤى وأحجار ... ومن رسوم عفاها صوب أمطار
لم يبق منها ومن أعلام عرصتها ... إلا شجيج وإلا موقد النـــار
ومائل فى ديار الحى بعدهم ... مثل الرئية فى أهدامه العارى
ديار ليلى قفار لا أنيس لها ... دون الحجون وأين الحجن من دارى
بدلت منها وقد شط المزار بها ... وادى المخافة لا يسرى به السارى
بين السماوة فى حزم مشرقة ... ومعنق دوننا آذيه جـــارى
وصار كل صديق كنت آمله ... إلباً على ورث الحبل من جارى
وما تلبثت بالأمر الذى وقعوا ... به على ولادنست أطمـــارى
ولا عصيت إماماً كان طاعته ... حقّاً على ولا قارفت من عار[1]

ولا ريب فى انها صورة قد رسمت بمهارة واختيرت عناصرها بدقة وحفلت بالعاطفة الرقيقة الحزينة فجاءت موحية ومعبرة ومثيرة للعواطف والوجدان ، والأسى على هذا الفارس الغريب فى أسره والطعين فى أصدقائه الذين خذلوه وأسلموه حيث بدل من دياره وديار أحبائه وادى المخافة والهول على غير ذنب جناه ولا دنس خامره ولا معصية اقترفها فى حق من يعد طاعته حقّاً عليه .

هذه هى الموضوعات والأغراض التى ذهب فيها شعر ثابت قطنة ، وهى جميعاً موضوعات تقليدية فيما عدا ما ذهب منه فى تقرير عقيدة المرجئة الجبرية ومقالتها فهو لون طريف لم يعرف فى الشعر العربى قبل هذا العصر .

وتكاد تكون قصيدته الوحيدة فى هذا الصدد مقالة مذهبية خالصة لوجه الأفكار التى يدين بها مرجئة الجبرية ولسنا بحاجة إلى أن نبين أنها تختلف اختلافاً بعيداً فى الصياغة الفنية عن جميع أشعاره ، فهى تقرير خالص يكاد

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٦١

يبلغ حد النثرية وخالية تماما من المشاعر العاطفية ، وأحاسيس الوجدان وتستند فحسب إلى ترتيب منطقى متسلسل تتبع فيه الفكرة أختها فى سياق عقلى منظم .

وشعر ثابت فيما عدا هذا يصدر فيه عن عاطفة قوية تتجلى فى فخره بنفسه و بمن اتخذهم أهلا وعشيرة من الأزد واليمن بعامة ، وكان بحكم ما تقدم من شدة حساسيته واستشعاره ضعة نسبه وجهله به يمعن فى استشعار العصبية للأزد والمهالبة منهم بوجه خاص ، فمدحهم ورثاهم بأجود أشعاره وأصدقها .

وإسقاطاً لما كان يشقيه من خمول نسبه وخجله منه تحول لساناً سليطاً وانبرى يصب حممه على خصومه فيرميهم بدائه وينسل مستعلياً عليهم مقذعاً وساخرا منهم سخرية مرة ، معرضاً بأنسابهم ، متشككا فى صحتها وسلامتها حتى برز فى الهجاء بروزا واضحاً .

وكذلك كان ثابت ذا قدرة ملحوظة على التقاط التفاصيل الدقيقة واختيار عناصر صوره فى وصف الحرب والقتال وأدواتها وأهوالها كما كان بارعاً فى تصوير آلام الغربة التى يتعرض لها المقاتل بعيداً عن وطنه وأحبائه . وهو فى مدحه وهجائه وفخره ورثائه ووصفه إنما يعتمد على عناصر تقليدية تماما ، فهو يمدح بالشجاعة والكرم وحماية الجار وبالحلم والمجد القديم وشرف النسب ، ويهجو بثلب هذه الصفات كما يفخر بها ويرثى بها أيضاً ، وليس فى شعره أدنى أثر للإسلام ، ولا لما أذاعه من أخلاق وقيم ، ولهذا كنا نعجب ونحن نرى شاعراً مفكراً من الشعراء المشتغلين بالكلام يكاد يكون فى عناصر شعره وصياغته جاهلياً ولكننا لابد أن نقدر طبيعة هذا الشاعر النفسية التى سيرته فى هذا الاتجاه وأملت عليه التشبث بأذيال العصبية القبلية واستشعارها فى كل ما نظمه من شعره فإذا هو فيما خلا شعره فى الأرجاء جاهلى خالص فى موضوعات شعره وعناصرها الفنية ، وليس هناك أثر للإسلام فى شعره غير ما تمتاز به ألفاظه من سهولة ويسر على قوتها وجزالتها ، وما يبدو فى تراكيبه من بساطة ووضوح على متانة سبكها وتماسكها.

ويبقى بعد ذلك ما يتصف به شعره من أصالة فى التصوير ، وعاطفية فى التعبير ترتفعان به إلى مصاف الشعراء الأصلاء المطبوعين .